السورة الخامسة عشرة

القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

نحن الآن مع سورةٍ مختصّةٍ بالعذاب، وليس فيها ما يخفّف من وطأتها على نفوس الذين تتوجّه إليهم بالإنذار إلاّ آيتان: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ، فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾.

والسورة هي الرابعة عشرة بالترتيب التراجعي لسور القرآن، وهي مؤلّفةٌ من ٣٦ لفظاً ولكنّنا نستطيع أن نضع أيدينا فيها على ٥٤ موقعاً جديداً.

وتبرز الشخصيّة اللغويّة للسورة في خمسة ألفاظٍ استقلّت بها عن غيرها من السوَر، وهي: (الفَراش، المبثوث، المنفوش، هاوية، هِيَه) وكذلك خمسة تراكيب وتعبيرات تقتصر عليها وحدها، وهي: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ﴾، ﴿الفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾، ﴿العِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، ﴿ أُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١ إلى ٣- القارعة [٣ مرّات]:

قد يكون القاموس الجاهليّ عَرَف هذا اللفظ مرّتين، وعند شاعرين أخوين مغرِقين في القدم، حفل شعرهما، وكذلك الملحمة الشعبيّة التي وصلت إلينا عنهما، بالأساطير أكثر ممّا حفلا بالحقائق، وهما كُلَيب بن ربيعة (ت١٣٤ ق.هـ) والمهلهِل بن ربيعة (ت٩٤ ق.هـ). يقول كُلَيب:

كأنّهمُ النعامُ غداةَ خافوا بذي السلاّنِ قارعةَ التلاقي

ومع ذلك فإنّ من الواضح، مع الهالة الكبيرة من الشكوك التي تحيط بأشعارهما، اختلافَ معنى اللفظ لديهما، وهو الحدث الكبير كما هو واضحٌ في بيت كُليب، أو الخوف الشديد، عن المعنى الاصطلاحيّ الجديد له في القرآن، وهو القيامة، وكأنّما أعطِيت هذا الاسم لأنّها "تقرع القلوب بالفزع، وتقرع أعداءَ الله بالعذاب".

ويدعم شكوكنا في جاهليّة اللفظ أنّنا، رغم وروده ٥ مرّاتٍ في القرآن الكريم، ثلاثٌ منها في هذه السورة وحدها، لا نجد له أثراً في الحديث الشريف.

٤- المبثوث:

لا نعثر على هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف، ولا نجده في القرآن الكريم خارج هذه السورة.

وما يزيده خصوصيّةً استخدامُه الخاصّ في وصف الفَراش، وما يُكسِبه هذا السياق الجديد من معنىً مميَّز.

٥- المنفوش:

لفظٌ آخر لم يعرفه الشعر الجاهليّ ولا الحديث الشريف، لا بهذا المعنى ولا بغيره. ولا نجده في القرآن الكريم خارج هذه السورة.

٦- ٧- موازينُه [مكرّر]:

المرّة الوحيدة التي عرف بها الشعر الجاهليّ هذا اللفظ هي في بيتٍ سبق أن أوردناه ضمن أبياتٍ أخرى شكّكنا بصحّة نسبتها للحُصين بن حُمام الفزاريّ (ت١٠ ق.هـ). والبيت هو:

وخَـفّ الموازيــنُ بالكافـرين وزُلـزِلــتِ الأرضُ زِلزالَهــا

والواضح أنّ ألفاظاً وتعبيراتٍ وصوَراً مثل: خفّة الموازين، والكافرين، وزلزلت الأرض زلزالها، كلّها محضُ قرآنيّ، ممّا يُضْعف مصداقيّة هذا البيت وصلاحيته لإثبات وجود أو عدم وجود لفظ (الموازين) في الشعر الجاهليّ. ومع أهمّية هذه الشكوك فإنّ (الموازين) هنا لا تعني بطبيعة الحال تلك الأداة التجاريّة التي عرفناها في الدنيا، وإنّما هي أمرٌ غيبيّ قرّبه الله إلينا بمثل هذه الصورة الدنيويّة الحسّية.

٨- عِيشَة:

لا يَرد هذا اللفظ مطلقاً في الحديث الشريف؛ إذ يستعاض عنه هناك بلفظ (معيشة)، وإن أضحى اللفظ القرآنيّ مألوفاً جداً لنا اليوم. وإذا حدث أن كان العربيّ الأوّل قد عرف هذا اللفظ وكان مألوفاً لديه، كما هو حاله لدينا اليوم، فإنّ من المؤكّد أنّ ما لم يكن مألوفاً عنده هو إطلاق اللفظ على نمطٍ جديدٍ من الحياة لا علاقة له بحياتنا الدنيا.

إنها (عِيشة)، اللفظ المألوف الذي يصف حياتنا اليوميّة المعتادة، ولكنْ ما شأن هذه "العيشة" الأخرى بعد الموت؟ وكيف تكون؟ ومتى؟ وإلى متى؟ وهل هي "عيشةٌ" حقيقيّة، كما اصطلح البشر على معنى هذا اللفظ؟

حتى إن عَرَف العربيّ أنّها في الحياة الآخرة، فما يزال مفهوم هذه الحياة غامضاً لديه، فكيف يكون بعد الموت "عِيشةٌ" وكأنّها حقّاً لا تختلف عن عيشتنا الأرضيّة؟!

٩- راضية:

هذا استعمالٌ جديدٌ للصفة المشبّهة (راضية). فهي تَرِد لأوّل مرّة على صيغة اسم الفاعل، ولكنّها تدلّ على اسم المفعول.

إنها هنا ليست العيشةَ التي "تَرضَى" كما يمكن أن نفهمه من استعمال اللفظ في لغتنا، بل التي " تُرضي" فهي إذن (راضية) ولكن بمعنى (مُرضِية).

وقد يسمّي البلاغيّون هذا من باب المجاز؛ إذْ أُطلِقت صيغةُ اسم الفاعل على العيشة، على حين أنّ المراد هو صاحب العيشة، وهي إذن مجازٌ جديدٌ خاصٌّ بالقرآن وحده.

١٠- أمُّه:

لا جديد في هذا اللفظ القرآنيّ بوصفه لفظاً، ولكنّ الجديد هو في معانيه الاحتماليّة التي اقترحها المفسّرون له، وحيرتهم بين المعنى التقليديّ: الأمّ الحقيقيّة، ومعانٍ أخرى خاصّةٍ بهذه السورة: مثل: المسكن، والمأوى، وأمّ الرأس أو قمّته، ومكان السقوط، ومنها (مسقط رأسه)، والنهاية، وغيرها.

ورغم ورود اللفظ (أمّ) ٢٣ مرّةً في القرآن الكريم؛ تنفرد سورة (القارعة) بهذا المعنى، أو المعاني، الجديدة للّفظ دون باقي السوَر. ولا نجد له مثل هذا الاستعمال مطلقاً في الحديث النبويّ.

١١- هاويَة:

اختلف المفسّرون حول المعنى الدقيق والمحدّد لهذا اللفظ، ولكنّهم يتفقون جميعاً على أنّه اسمٌ آخر لجهنّم، أو لشيءٍ يتعلّق بها، لم يعرفه العرب قبل الإسلام، مثلما لم يعرفوا اسمها الآخر (الجحيم) الذي مرّ بنا في سورة (الهُمزة).

ولا نجد اللفظ في غير هذه السورة، ويخلو منه الحديث النبويّ إلاّ أن يرد في معرِض الحديث عن هذه الآية.

١٢- هِيَهْ:

هذه الهاء في نهاية الضمير حيّرت اللغويين، لأنّهم لم يجدوها إلاّ في القرآن، فلا نعثر على مثلها في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف.

ولقد اختُصّت هذه السورة دون غيرها من السوَر باللفظ (هيَهْ)، ولكنّنا نجد هذا النوع الغريب من الهاء مع غير الضمير (هي) وفي أكثر من مكانٍ في القرآن الكريم، ولا سيّما في سورة (الحاقّة) التي تتكرّر فيها هذه الهاء ستّ مرّاتٍ خلال بضع آياتٍ شبه متتالية:

- ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [١٩-٢٠]... ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [٢٥-٢٩]

وقد اقترحوا لها اسم (هاء السَكت) فكأنّها استُخدمت لتُعيننا على لفظ الياء المتحرّكة حين التوقّف أو السكوت عندها، لأنّ بعض العرب يسكّنون الياء في (هيْ)، فلا حاجة للهاء عندئذٍ، ولذلك أسقطها بعضهم من القراءة إذا وصلوا الآية بما بعدها، فقرأوا: (وما أدراكَ ما هيَ نارٌ...) لانعدام الحاجة إليها في حال عدم التوقّف عند (هي).

ولكن من المهمّ التذكير بأنّ آخرين أصرّوا على إثبات الهاء في الحالين: الوقف أو الوصل.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- القارعة:

ربما لن نستغرب كثيراً لو خرجت علينا الصحف اليوم بمقالةٍ افتتحها كاتبها بقوله: الفضاء. ما الفضاء؟ هل فكّرت يوماً في الأجرام التي تسبح فوقنا هناك في الفضاء؟

نعم لن نستغرب هذا كثيراً، اليوم، ولكن من المؤكّد أنّ أيّ عربيٍّ عاصر نزول الوحي سيستغرب أشدّ الاستغراب وهو يسمع لأوّل مرّةٍ في حياته مثل هذه الافتتاحيّة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.

لقد بدأت السورة بآيةٍ قصيرةٍ جداً، وانتهت الجملةُ، أو الوحدة اللغويّة، فيها نهايةً سريعةً جداً، بل انتهت قبل أن تنتهي.

إنّها آيةٌ مستقلّةٌ كاملة، ولكن ليس فيها إلاّ مبتدأ!! هكذا: لا خبرَ مذكورٌ لهذا المبتدأ، ولا صفة، ولا مضافٌ إليه، لا شيء إلاّ المبتدأ، وانتهت الآية!!

طبعاً ستتطلّب منّا قواعد النحو، البشريّ، أن نبحث عن خبرٍ لهذا المبتدأ، هكذا تعارف النحويّون: لا مبتدأ من غير خبر، ولهذا قدّروا لهذا المبتدأ القرآنيّ الغريب خبراً هو الآية التالية له، والتي تتضمّن هذا الاستفهام التحذيريّ: ما القارعة؟

وهكذا نجد أنفسنا أمام أوّل جملةٍ في تراثنا يكون خبر المبتدأ فيها سؤالاً!!

بل ذهبوا أبعد من ذلك حين قدّروا قبل لفظ (القارعة) -ليكون حلاًّ بديلاً- فعلاً ما محذوفاً مثل (ستأتي) ليكون هذا اللفظ فاعلاً له، أي: ستأتي القارعة، وبهذا نكون قد عثرنا على حلٍّ نحويٍّ للمشكلة، ولكنّنا نكون قد فقدنا، بهذه العمليّة القيصريّة، الجمالَ والإيحاءات والأطياف التي أحاطتنا بها جدّتها وتفرّدها.

وسواءٌ أخْضعنا الآية إلى قواعد النحويّين، أو حرّرناها من هذه القواعد فلم نحاول افتراض أيّ مقدَّرٍ قبلها أو بعدها، يظلّ استعمالها غريباً وجديداً على أذن العربيّ الأوّل: سواءٌ في اقتصار وحدةٍ لغويةٍ كاملةٍ على مبتدأ، أو في ابتداء وحدةٍ أدبيةٍ كاملة، هي السورة هنا، بجملةٍ غير عاديّةٍ اقتصرت على لفظٍ واحدٍ لا نعرف ما إذا كان: ١ - جزءاً من جملةٍ فعليّةٍ حُذف فعلُها، أو: ٢ - جزءاً من جملةٍ اسميّةٍ حُذف خبرها، أو: ٣ - جزءاً مفرداً استقلّ وحده بآية، أو: ٤ - شيئاً غير هذا وذاك لم تتّسع له قواعدنا النحويّة المحدودة التي عجزت عن الإحاطة باللغة السماويّة غير المحدودة.

٢- ما القارعة [الأولى]:

إذا أثارت هذه الجملة الاستفهاميّة التحذيريّة دهشة العربيّ الأوّل، لأنّها جاءت خبراً للمبتدأ الذي تكوّنت منه الآية الأولى؛ فلا بدّ أنّها فاجأته كذلك بأنها وحدةٌ لغويّةٌ كاملةٌ مستقلّة، رغم أنّها لا تعدو أن تكون خبراً لوحدةٍ لغويّةٍ سابقةٍ مستقلّةٍ أيضاً.

أمّا المفاجأة الأخرى التي تنتظر العربيّ الأوّل هنا فهي هذا الأسلوب التحذيريّ الجديد الذي يصطبغ بصبغة الاستفهام، مجرّد استفهام، ومن غير أيّ فعلٍ يسبقه أو يمهّد له، من مثل قولك: (عقوبتك؟ أتدري ما عقوبتك؟)، فقدّمت للاستفهام الثاني بالفعل (أتدري)، على حين خلت الجملة القرآنيّة الثانية من مثل هذا الفعل. إنّه أسلوبٌ لم نعهده، ولا نعرفه حتّى الآن، إلاّ في القرآن الكريم. ونجد في سورة (الحاقّة) نموذجاً آخر يطابق تماماً هذا النموذج:

- ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ ﴾ [١-٣]

٣- ٤- ما القارعة [الأولى والثانية]:

من المعروف في أساليبنا العربيّة المعتادة أنّنا نستغني بالضمير عن تكرار اللفظ نفسه، فنقول مثلاً -مع حفاظنا هنا على بقيّة أجزاء الآية كما هي-: القارعة، ما هي؟ وما أدراك ما هي؟ كما حصل في نهاية السورة حقاً حين قال تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ ﴾ فلم يقل: وما أدراك ما الهاوية. ولكنّ الآية، على عكس أعرافنا اللغويّة، تعيد اللفظ نفسه بدلاً من إحلال الضمير.

٥- ٦- وما أدراك [مكرّر]:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ جديد سبق أن توقّفنا عنده في حديثنا عن قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ في سورة (الهُمزة). ولا وجود لهذا التعبير في الشعر الجاهليّ ولا الإسلاميّ، ولا في الحديث الشريف، رغم تردّده ١٣ مرة في القرآن الكريم.

٧- يومَ:

إنّه ظرفٌ عاديٌّ ومألوفٌ جدّاً لدينا، ولكنّ موقعه في السورة غير عاديّ.

فمجيئه في مطلع الآية، ومن غير أن يسبقه فعلٌ، أو ما يدلّ على فعلٍ أو حدثٍ يصلح أن نعلّقه به، بوصفه ظرفاً، جعل المفسّرين والنحويّين يحارونَ في تعليقه، ومن ثمّ في إعرابه:

أيعلّقونه بالقارعة؛ أي: تقرع الناسَ يوم يكونون كالفَراش..؟

أم على العكس؛ أي: يصبح الناس كالفَراش يومَ تقرعهم؟

أم نعلّقه بفعلٍ محذوف؛ أي: ستأتي (أو تحدث) القارعة يوم يكون الناس؟

أم نعلّقه بخبرٍ محذوفٍ لمبتدأ محذوف؛ أي: هي حاصلةٌ يوم يكون الناس؟

أم هو مفعولٌ به لفعلٍ محذوف (أي نعربه مفعولاً به منصوباً، وليس ظرفاً، وكأنّنا نقول: اُذكرِ اليومَ الذي يكون فيه الناس)؟

وهكذا تعدّدت الاتجاهات أمام النحويين وهم يقفون أمام هذا الموقع القرآنيّ الجديد والمحيّر لظرفٍ عاديٍّ غير جديد.

٨- يومَ يكون:

إنّ إضافة الفعل (يكون) إلى الظرف (يوم) تركيبٌ جديد لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الإسلام، وربّما بعده أيضاً، ويخلو منه الحديث الشريف أيضاً.

والأغرب من ذلك ألاّ يتكرّر التركيب مرّةً أخرى في غير هذا الموضع من القرآن الكريم.

٩- الفَراشُ المبثوث:

هذا تعبيرٌ جديدٌ عن شكل التبعثر والفوضى الذي يأخذه الجراد أو البعوض أو مختلف أنواع الفَراش وهي تهيم في شتّى الاتجاهات.

وسنرى كيف استُخدمت هذه الصورة القرآنيّةُ الغريبة للضياع والفوضى؛ في بناء صورةٍ أخرى أشمل تصف حالة الناس يوم القيامة.

١٠- الناسُ كالفَراش المبثوث:

من المهمّ جدّاً لأيّ موقفٍ جديد، إذا أردنا أن نصفه لمن لم يعرفه من قبل، أن نقدّمه في صورةٍ جديدةٍ أيضاً كهذه، حتّى تتفتّق للسامع أبعادٌ خياليّةٌ مبتكَرةٌ غير تقليديّة، لأنّ الموقف نفسَه أيضاً غير تقليديٍّ ولا عاديّ.

وأيُّ شيءٍ أشدّ حاجةً لمثل هذه الصورة الجديدة من موقفٍ مخيفٍ كهذا تلفظ فيه القبورُ كلّ من عرفتهم الأرض من البشر، منذ آدم حتّى يوم القيامة، فيُبعثون من الموت ليهيموا على وجوههم، ويتدافعوا في كلّ اتجاه، ويتداخل بعضهم في بعض، وهم لا يملكون لأنفسهم وجهةً، ولا يعرفون لهم هدفاً، فكأنّهم الفَراش، أو الحشرات الصغيرة التي تتطاير متزاحمةً حول النار في كلّ اتجاه، منتهيةً بعد ذلك إلى مصائرها المحتومة؟ إنّها واحدةٌ من مئات، وربّما آلاف الصور الجديدة التي أضافها القرآن الكريم إلى معجمنا البلاغيّ التقليديّ.

١١- العِهْنُ المنفوش:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لا نجده في الشعر الجاهليّ، أو بعده، ولا في الحديث الشريف، وكأنّما يصوّر تلك الكتل الملوّنة من حلوى السكّر المنفوش، أو ما يسمّيه عامّتنا (غزْل البنات)، أو أنواعُ الصوف الملوّن التي عرفها الناس في الجاهليّة.

وسيكون لهذا الاستعمال الجديد دوره الهامّ في بناء الصورة المخيفة التالية من صور يوم القيامة ممّا لم يعرف الإنسان مثيلاً له من قبل، ولن يعرفه في حياته من بعد.

١٢- الجبالُ كالعِهنِ المنفوش:

هل تصوّرت أبداً كيف يمكن أن تتفتّت الجبال أمام عينيك، فتتضخّم وتتباعد جزيئاتها وذرّاتها بحيث تتحول كالصوف المنتفش؟ إنها صورةٌ مخيفةٌ بقدر ما فيها

من مفارقةٍ غريبةٍ بين هول المنظر في صورة الجبال وهي تتناثر وتتفتّت، وبين ما قد يوحي به منظر الصوف المنفوش من دفءٍ وطُمأنينة، وكذلك المفارقة الغريبة الأخرى بين صلابة الجبال وثقلها ورسوخها وبين طراوة العهن وتطايره وخفّة وزنه!

ولكنّ أغرب ما في هذه الصورة تلك الحقيقة العلميّة التي تشير إليها. ورغم أنّنا أخذنا على أنفسنا في هذا الكتاب ألاّ نتعرّض لجوانب الإعجاز العلميّ، لعدم الاختصاص، فإنّه لا مناص بين الحين والآخر من إلمامةٍ سريعةٍ بهذا النوع من الإعجاز نأخذها عمّن عالجوا هذا الجانب، إذا كان فيها ما يوضّح الصور البلاغيّة المدروسة.

فكلّ جسمٍ في هذا الكون يمكن أن:

أ- ينكمش ويتقلّص إذا ازدادت كثافته وتقاربت جزَيئاتُه، كما يحصل للأجرام التي تبتلعها الثقوب السوداء في أعماق الكون.

ب- أو ينتفش إذا قلّت كثافته وتباعدت جزَيئاتُه، كما يمكن أن يحصل للجبال يوم القيامة.

هل سمعتم بالثقوب السوداء؟ إنها نجومٌ تَوَفّر لها من قوة الجاذبيّة ما يكفي لاجتذاب كل ما يقترب من مجالها من نجوم أو أجرام، وكلّما ابتلعت جَرماً جديداً امتصّت جاذبيّته فازدادت قوّة جاذبيّتها، وارتفعت، من ثمّ، كثافتها، وأصبحت أكثر قدرةً على ابتلاع المزيد ممّا حولها.

بل إنّ قوّة الجاذبيّة هذه تجعل أجزاء النجم نفسِه تتجاذب وتتقارب وتتداخل، فيصغر حجمه بشكلٍ هائل، وتزداد بهذا كتلةُ النجم كثافةً، وجاذبيّتُه قوّةً، حتى يكون وزنُ ما كان منه بحجم كرة التنس أضعافَ أضعافِ وزن الكرة الأرضية.

وهكذا تصل قوّة جاذبيّة هذا النوع من الأجرام درجةً تجعلها تبتلع الضوء الذي يسقط عليها، فلا تعكس هذا الضوء وتستحيل بذلك رؤيتنا لها، فسمّوها لذلك: الثقوب السوداء[1].

---

(١) راجع مصادر وكتب الإعجاز العلمي، ولا سيما كتاب "خَلقُ الكون بين العلم والإيمان"، انظر: - الطائي، محمد باسل. **خَلقُ الكون بين العلم والإيمان**، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٨م، ص٦٨ وما بعدها.

إنّ انتفاش الجبال يوم القيامة يمكن أن يكون، والله أعلم، مجرّد عمليّةٍ فيزيائيّةٍ معاكسةٍ لما يجري في "الثقب الأسود" من انكماشٍ وتقلّص.

وهكذا، فبمجرّد تناقص قوّة الجاذبيّة في الأرض، لسببٍ من الأسباب الغيبيّة، تبدأ جزيئاتُها بالتباعد، وكتلتُها بالنقصان، وحجمها بالتزايد، حتى يغدو شكل الجبال فيها كغزْل البنات أو الصوف المنفوش.

١٣- فأمّا مَن:

هذا ابتداءٌ منقطعٌ للجملة أو العبارة؛ غير معهودٍ قبل القرآن، ولا سيّما إذا انعدم قبل الجملة ذكرُ خيارين اعتدنا أن يبدأ المتحدّث بهما، كأن يقول: أمامنا الآن كتبٌ صغيرة وأخرى كبيرة، فأمّا الصغيرة.. أو يقول: أمامك طريقان: أمّا الطريق الأولى.. وأمّا الثانية..

ويتكرّر هذا الابتداء المنقطع في سورٍ عدّة، بحيث يصبح أسلوباً قرآنيّاً مميَّزاً، كقوله تعالى:

- ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقّة: ١٩]
- ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر: ١٥]
- ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩]

ولا نجد هذا الأسلوب المتميّز في الشعر العربيّ، لا قبل الإسلام ولا بعده، ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

إنّ أسلوب الحديث النبويّ في استعمال (فأمّا) لا يختلف عن أسلوبنا اليوم، إذ تأتي هذه الأداة دائماً بعد خيارين يسبقانها، فتقوم هي بدور التفصيل بينهما، ولهذا دُعيت تفصيليّة. ومن ذلك الحديثان الشريفان:

- .. هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: أصبح مَن عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأمّا مَن قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمتِه فذلك

مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكواكب، وأمّا مَن قال: بنَوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي ومؤمنٌ بالكواكب[1].

- الغزو غَزوان: فأمّا مَن ابتغى وجهَ الله وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسَرَ الشريك، واجتنب الفساد، كان نومُه ونُبْهُه أجراً كلُّه، وأمّا مَن غزا رياءً وسُمعةً، وعصى الإمام، وأفسدَ في الأرض، فإنّه لا يَرجِعُ بالكَفاف[2].

١٤- ثُقُلتْ موازينُه:

هذا تعبيرٌ مجازيٌّ جديدٌ عن الربح أو الفوز أو النجاح. وقد يكون تعبيراً غير مجازيٍّ أيضاً لو كانت هناك موازين حقيقيّة، حتّى إن كانت مختلفةً عن الموازين التي نعرفها، وتعمل بغير الطرائق التي اعتدناها، وفي ظروفٍ تختلف كلّياً عن أية ظروفٍ أخرى عهدناها في عمليّات الوزن الدنيويّة.

ورغم تكرار هذا التعبير، أو لنقُلْ: الصورة، ثلاث مرّاتٍ في القرآن، يخلو الشعر الجاهليّ منه تماماً، وكذلك الحديث النبويّ الشريف، إلاّ أن يرِد ضمن سياقٍ متعلّق بذكره في القرآن.

١٥- فهو في عِيشةٍ راضية:

مرةً أخرى يستقلّ جواب الشرط بآيةٍ أخرى أو وحدةٍ مستقلّةٍ منفصلةٍ عن آية فعل الشرط، وهو أسلوبٌ يختصّ به القرآن وحده كما عرفنا.

١٦- عيشةٍ راضية:

لم يعبّر أحدٌ قبل القرآن، وربّما بعده أيضاً، عن معنى العيش الهنيّ، أو الحياة السعيدة، بهذا التعبير الخاصّ والمميَّز.

ويتكرّر التعبير مرّةً أخرى في سورة (الحاقّة). ولا وجود له في الحديث الشريف.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٠، حديث رقم ٨١٠.

(٢) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج٢، ص١٧، حديث رقم ٢٥١٥.

١٧- خفّت موازينُه:

يأتي هذا التعبير بمقابل التعبير السابق ﴿ ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾. وهو يتكرّر في القرآن حيثما يتكرّر التعبير الأول (ثلاث مرات).

إنه تعبيرٌ عن الخسارة والإخفاق والخيبة، أو هو، كما أسلفنا، تعبيرٌ عن موقفٍ حقيقيٍّ يوزن فيه عمل المرء في حياته، بغضّ النظر عن طبيعة الموازين والموزونات هناك واختلافها عمّا عهدناه في الحياة الدنيا.

١٨- فأمُّه هاوية:

تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر من التعبيرات الشديدة الخصوصيّة التي لا يمكن أن نجدها إلاّ في القرآن الكريم[١].

وبغضّ النظر عن معنى (أمّه) في الآية، وقد اقترحوا له معاني عديدةً لأنّ التعبير جديدٌ كلّياً عليهم، ومن هذه المعاني: الأمّ الحقيقيّة، أو أمّ الرأس، أو المستقَرّ، أو المصير، أو المأوى والمسكن.. وبغضّ النظر أيضاً عن طبيعة استعمال اللفظ في هذا السياق: حقيقيٌّ هو أم مجازيّ، فإنّ ارتباطه بالمصطلح الجديد الآخر (الهاوية) يجعل من التركيب المتكوّن من اجتماعهما تركيباً قرآنيّاً متفوّقاً في جدّته وغرابته وتفرّده.

ولا يتكرّر التركيب، ولا اللفظان الجديدان، بالمعنى القرآنيّ الجديد، منفردَين أو مجتمعَين، مرّةً أخرى في القرآن الكريم.

---

(١) يلحّ النحويّون المحدثون على ضرورة تجريد المضاف من "ال" التعريف، فيفرض بعضهم أن يقال هنا: "التعبيرات شديدة الخصوصيّة" رغم أنّنا هنا في معرض الإضافة إلى الصفة وليس الاسم (شديدة)، وهو جائزٌ عند قدامى النحويّين، ورغم أنّ هذا النوع من الإضافة يتكرّر في الحديث الشريف، مع الصفة وغيرها، كما في الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك: "..فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلتُ يا عبد الله، إنّه لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردتُ أن آوي إليك لأنظر ما عملُك، انظر: - الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٠، ص١٢٤، حديث رقم ١٢٦٩٧.

١٩- نارٌ حامية:

على عكس التعبير السابق، الذي أدهشَنا بالاحتمالات المتعدّدة من المعاني لكلٍّ من لفظيه، ولا سيّما الأوّل، نلاحظ في هذا التعبير بساطة لفظيه واعتيادنا لهما في لغتنا اليوميّة، وتجرّدهما من أيّة احتمالاتٍ مجازيّة، أو أيّة اختلافاتٍ حول معنى كلٍّ منهما.

ومع ذلك فهو تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ، يتكرّر مرّتين في القرآن، ثمّ لا نجده، لا في الشعر ولا في النثر، حتى فترةٍ متأخّرةٍ من العصور. ويخلو منه تماماً الحديث النبويّ الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- القارعةُ. ما القارعة:

من الواضح أن هذا البناء اللغويّ، المركَّب من آيتين يتكرّر فيهما اللفظ نفسُه، مع إضافة أداة الاستفهام (ما) في مطلع الآية الثانية، أصبح سبيكةً قرآنيّةً شديدة الوضوح والتميّز، ولا سيّما أنّها تتكرّر هي نفسها في مطلع سورة (الحاقّة)، كما سبق أن رأينا.

٢- وما أدراك ما القارعة:

وهي سبيكةٌ قرآنيّةٌ أخرى تعتمد على التركيب القرآنيّ المميَّز ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ وتتكرّر بعده أداة الاستفهام (ما) للمرّة الثانية، يليها مبتدأ مؤخَّرٌ معرَّفٌ بـ "ال" (وهو القارعة هنا).

وتتكرّر هذه السبيكة نفسها في القرآن، وبالعناصر المذكورة تماماً، أربع مرّات، إحداها في سورة (الحاقّة).

٣- ٤- يوم يكون الناس كالـ/ وتكون الجبالُ كالـ:

وهي سبيكةٌ قرآنيّةٌ أخرى واضحة النكهة، تبدأ بالتركيب القرآني (يوم يكون) الذي لا يتكرّر أبداً في تراثنا، ولا في القرآن نفسه أيضاً - كما عرفنا - ويليه اسمٌ ظاهرٌ للفعل الناقص (يكون) وهو(الناس)، وتنتهي سبيكتنا هذه بأداة التشبيه (الكاف) التي يمكن أن نعدّها بمثابة خبرٍ للفعل الناقص، أي: يكون الناس مثلَ...

ومن الواضح أنّ أقرب السبائك القرآنيّة إليها هي الآيةُ التي تليها ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ ولكن هذه الأخيرة تخلو من الظرف (يوم) الذي يعطي السبيكة الأولى شحنةً إضافيّةً من التفرّد، وإن كانت الآية الأخرى تابعةً، نحويّاً، لذلك الظرف أيضاً، فالتقدير: يوم تكون الجبالُ كالعِهن.

٥- ٦- أمّا من ثقُلتْ موازينُه/ أمّا من خفّت موازينُه:

هاتان السبيكتان المتشابهتان يتكرّر كلٌّ منهما في القرآن -حرفيّاً تقريباً وبالألفاظ نفسها- ثلاث مرّات.

ويميّز شخصيّتهما، كما نلاحظ، ابتداؤهما بأداة الشرط التفصيلية (أمّا) تليها أداة شرطٍ ثانيةٌ (مَن) -يمكن أن نعدّها اسم موصولٍ، أي بمعنى الذي، لتجنّب توالي شرطين- ثمّ فعلٌ مع فاعله، والفاعل مضافٌ إلى ضمير الغائب العائد على اسم الموصول (مَن).

٧- وما أدراك ما هِيَهْ:

مرةً أخرى تُفتتح هذه السبيكة بالتركيب القرآنيّ المميَّز ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ ولكنّها تنتهي بالتركيب المميَّز الآخر ﴿مَا هِيَهْ﴾ ليزيد هذا من خصوصيّتها.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- القارعة:

يكتسب هذا اللفظ صفته الانفتاحيّة من أمرين:

الأول: موقعه الإعرابيّ:

فقيل: إنه مبتدأٌ خبره الآية التالية ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾،

وقيل إنه مرفوعٌ بإضمار فعلٍ قبله، والتقدير: ستأتي القارعة،

وقيل إنه للتحذير؛ أي: القارعة قادمةٌ، فيكون على هذا مبتدأً خبره محذوف.

وأنا أرجّح الرأي الأخير، وأرْجح منه أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي القارعة، أو إنها القارعة، فهذا يعطي اللفظ قوّةً تحذيريّةً أضخم، بما يحقّقه من عنصر السرعة والمفاجأة، وكأنه الصرخة التي يفاجئنا بها من يحذّرنا من أمرٍ سقط فوقنا بسرعةٍ ويوشك أن يقع على رؤوسنا، فلا وقت للكلام، ومن ثمّ، لا وقت للمبتدأ فيواجهنا بالخبر مباشرة.

إنّ هذا كفعلك مع من توشك أن تدهسه سيّارة، فتقول محذِّراً: السيّارة، فأنت لن تجد الوقت لتقول له جملةً كاملةً مثل: انتبه يا صديقي إلى نفسك إنّ السيّارة توشك أن تدهسك، فستكون السيّارة قد دهسته قبل أن تنتهي من إلقاء خطبتك.

وقد تنبّه سيد قطب في (ظلاله) إلى أهمّية الاستغناء عن الخبر في هذه الآية، وإن اتّجه إلى أن المحذوف هو الخبر وليس المبتدأ، وإلى أنّ الغاية من حذفه هو التركيز على جرْس (القارعة) وإيقاعها المرهوب، فقال:

"لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردةً كأنها قذيفة: "القارعة" بلا خبرٍ ولا صفة، لتُلقي بظلّها وجَرْسها الإيحاءَ المدوّي المرهوب"[1].

---

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط١٠، ١٩٨٢م، ج٦، ص٣٩٦٠.

والأمر الثاني: جِدّة الاصطلاح. فقد عرف العرب جذر هذا اللفظ، وربّما عرفوا اللفظ نفسه أيضاً، كما رأينا، ولكنّ المعنى الجديد الذى اصطُلح له، بوصفه اسماً من أسماء يوم القيامة، منحه بُعداً، وربما أبعاداً معنويّةً إضافيّةً جديدة.

فلماذا كان يومُ القيامة قارعةً؟

ألأنّه يقرع القلوب بالفزع لهوله؟

أم لأنّه يقرع أعداءَ الله بالعذاب؟

أم لأنّه يقرع الآذان بما فيه من أحداثٍ وزلزلةٍ وضجيجٍ هائل؟

أم لأنّ العرب اعتادوا أن يسمّوا كلّ حادثةٍ عظيمةٍ من حوادث الدهر قارعةً؟

هذه المعاني كلّها واردةٌ ومحتمَلةٌ، وبها يكتسب اللفظ مزيداً من الإشعاع والقوّة والانفتاح.

٢- ٣- ما القارعة [مكرّر]:

إلى جانب ما أثبتناه للفظ (القارعة) من أبعادٍ إعرابيّةٍ ومعنويةٍ أغنته بالظلال والألوان، تأتي أداة الاستفهام (ما) لتضيف إلى هذه الأبعاد بعداً جديدا يفجّره التساؤل هنا:

هل هو تساؤلٌ تحذيريّ؟

أم تساؤلٌ تهويليٌّ وتضخيميّ يوحي بجلال الحدث وعظمته وشدّته؟

أم هو مجرّد تساؤلٍ حقيقيٍّ يترك للسامع أن يقدّر بنفسه ماذا يمكن أن تكون القارعة؟

والاحتمالات الثلاثة، وربّما غيرها أيضاً، مطروحةٌ وممكنة.

٤- يومَ يكون:

قد عرفنا المذاهب المتعدّدة التي اقتُرحت لتعليق الظرف (يوم). وبدهيٌّ أن تزداد بذلك تأويلات هذا الظرف، ومعه الفعل الناقص الذي أضيفَ إليه (يكون)، ومن ثمّ تزداد انفتاحيّته، بازدياد عدد هذه المذاهب.

٥- الناسُ كالفَراشِ المبثوث:

أيّة إيحاءاتٍ وطيوفٍ وأبعادٍ يمكن أن تستدعيها هذه الصورة البيانيّة الجديدة لحركة الناس وتدافعهم وتداخلهم وذهولهم يوم القيامة؟

إن أوجه الشبه الكثيرة بين الناس، وهم في هذه الساعة العظيمة، والفراش الهائم حول النار، تغني الصورةَ بالألوان والأبعاد.

فبين المشبّه والمشبّه به هنا أكثر من وجهٍ: الطيش والضياع - الانتشار في الأرض - ركوب بعضهم بعضاً - الكثرة التي لا غَناء فيها - الضعف والتذلّل - الإشراف على النار المحرقة مع عدم إرادة الاحتراق - المصير المحتوم..

٦- الجبالُ كالعِهنِ المنفوش:

ولنا أن نتخيّل هنا أيضاً الصورة غير العاديّة للجبال في ذلك اليوم غير العاديّ:

فالجبال التي يُضرب المثل بثباتها وثقلها، هي الآن متطايرةٌ ومتحوّلةٌ عن أماكنها بخفّة الفقاعات،

وربّما ظلّت على أحجامها، كما يرى الفرّاء، مع تبعثرها وتحوّلها من أماكنها بخفّةٍ كخفّة العِهن،

وربّما انتفشت، كما يرى آخرون، وتضاعف حجمها عشرات المرّات، بعد أن تفتّتت ذرّاتها وتباعدت جزَيئاتها.

وقد سبق أن نبّهنا إلى المفارقة الموحية العجيبة بين ثِقل الجبال وخفّة العهن، وصلابة الأولى وليونة الثاني، ووقار الأولى وهوان الثاني، وهي مفارقةٌ تضيف أبعاداً أخرى فوق الأبعاد التي تفجّرها أوجه الشبه المتعدّدة في الصورة.

ولاحظ أيضاً أنّ الصورة لم تقتصر على تشبيه الجبال بالصوف المنفوش، بل اعتمدت أيضاً على لفظ (العِهن) الذي يعني الصوف الملوّن، وليس الصوف العاديّ، وقد يفسّر هذا اختلافُ ألوان الجبال، كما ينصّ القرآن الكريم في آيةٍ أخرى، واختلافُ ألوانها لا بدّ أن يستتبع اختلافَ ألوان المادّة الفقاعيّة التي تحوّلت إليها.

٧- ٨- موازينُه [مكرّر]:

أثار هذا اللفظ جملةً من التأويلات عند المفسّرين وأهل اللغة:

فقيل إنه موازين حقيقيّة، لكن من نوعٍ خاصّ، ولكم أن تتخيّلوا ما شئتم أن تتخيّلوه من أشكالٍ لهذه الموازين،

وقيل إنّه ميزانٌ واحدٌ وعبّر عنه بصيغة الجمع (موازين)،

وقيل إنّما جُمع لاختلاف الموزونات، فلكلّ حادثةٍ ميزانٌ مختلف،

وقال عزّ الدين بن عبد السلام في (مجاز القرآن) إنها موازين حسنات المرء أو سيّئاته وليست موازين المرء نفسه، رغم إضافة اللفظ إلى الضمير العائد عليه هو، أي على المرء، فهو من قبيل المجاز،

وقيل إنّ الموازين هي الحُجج والدلائل،

وقيل هي جمع (موزون) وهو العمل الذي له وزنٌ وخطرٌ عند الله،

وقيل كذلك إنها بمعنى (وزْن)، يقول العرب: هل لك في درهمٍ بمِيزان درهمِك، أي بوزن درهمك،

وقال مجاهد: ليس ميزاناً، إنّما هو مَثَلٌ ضُرب.

هذه المعاني الكثيرة المحتَمَلة للّفظ تجعله واحداً من أهمّ الألفاظ المنفتحة ذات الأبعاد المتعدّدة في السورة.

٩- عِيشةٍ راضية:

لقد عرفنا للفظ (العيشة) معنىً دنيويّاً متداولاً ومعروفاً. ولم يتصوّر العربيّ أنّ الحياة هناك في الآخرة يمكن أن تكون (عيشةً) أيضاً، فقد يسمّيها (حياةً) أو (إقامةً) أو (خلوداً) لأنّ لفظ (عيشة) مرتبطٌ عنده بالأرض والحياة الدنيا.

إنّ هذا يثير لدينا من غير شكٍّ إيحاءاتٍ شتّى عن طبيعة تلك (العيشة) التي سنعيشها، ولكن في ظروفٍ مختلفة، وفي وضعٍ مختلفٍ كلّياً عما عهدناه من أنواع معيشة الدنيا.

فإذا أضفنا إلى هذا ما عرفناه من وضعٍ لغويٍّ متفرّدٍ للّفظ (راضية) كما رأينا، بكلّ ما لديه من أبعادٍ واحتمالاتٍ لغويّةٍ وبيانيّةٍ مختلفة، كان لدينا في النهاية تعبيرٌ إيحائيٌّ جديدٌ يتمتّع بشحنةٍ قويّةٍ من الطيوف والألوان.

١٠- أمُّه هاوية:

عرفنا ما لهذا التعبير من جِدّة، وما حوله من إشكالاتٍ في تفسيره. وبقدر ما تزداد هذه الإشكالات يزداد التعبير إيحائيّةً وانفتاحاً.

فعز الدين بن عبد السلام يرى أنه من المجاز، وأنّ أصل المعنى: فأمُّ (رأسِه) هاويةٌ، وعلى ذلك يكون (هاوية) هنا اسماً لجهنّم، أي سيسقط في جهنّم على أمّ رأسه.

وقيل إنه من قولهم: (هوت أمُّه) إذا دعَوا على رجلٍ بالهَلَكة، لأنه إذا هوى وهَلك فقد هَوَت أمُّه حزناً عليه، فيكون اللفظ (هاوية) على ذلك اسم فاعلٍ، ويكون المعنى: أمّه ستهوي حزناً عليه. قال كعب بن سعد الغَنَويّ (ت٥ ق.ه):

هَوَتْ أمُّهُ ما يَبعثُ الصبحُ غادياً ... وماذا يؤدّي الليلُ حين يؤوبُ

وقيل إنّ (الأمّ) في الآية هي المأوى، على التشبيه، لأنّ الأمّ مأوى الولد ومَفزعه، فالمعنى على ذلك أنّ مأواه الأخير هو الهاوية أو النار.

وإذا صحّت الرواية النبويّة التالية فسيكون فيها توضيحٌ كافٍ لهذا التعبير. جاء في الحديث الشريف:

- إذا قُبضت نفسُ العبد تلقّاه أهلُ الرحمة من عباد الله كما يَلقَون البشير في الدنيا، فيقبلون عليه ليسألوه، فيقول بعضُهم لبعض: أَنظِروا أخاكم حتّى يستريح؛ فإنّه كان في كرب، فيُقبلون عليه فيسألونه: ما فعَل فلان؟ ما فعلتْ فلانة؟ هل تزوّجت؟ فإذا سألوا عن الرجل قد مات قبله [أي سألوه عمّا إذا كان ذلك الرجل قد مات قبله، إذ لم يُقبِل عليهم بعد] قال لهم: إنه قد هلك [أي مات قبله]، فيقولون: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذُهِب به إلى أمّه الهاوية، فبئست الأمّ و بئست المربّية[1].

١١- وما أدراكَ ما هِيَهْ:

هذه جملةٌ تساؤليّة، ولكنّ التساؤل فيها يحمل أكثر من وجه:

فقد يكون لإثارة الاستغراب والتساؤل،

وقد يكون للتفخيم والتهويل،

وقد يكون لإثارة الفزع والخوف ممّا سيأتي،

وقد يكون لإغناء عنصر المفاجأة، لأنه ينبّهنا إلى قرب مجيء الجواب ويهيّئنا لاستقباله: نارٌ حامية،

وقد يكون لكلّ ذلك جميعاً.

ومن ناحيةٍ أخرى يأتي اللفظ (هِيَهْ) في النهاية ليضعنا أمام مزيدٍ من الاحتمالات ومزيدٍ من الأسئلة:

---

(١) المروزي، عبد الله بن المبارك. **الزهد**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص١٤٩، حديث رقم ٤٤٣.

على ماذا يعود الضمير (هي):

على (أمّه)؟

أم على (هاوية)؟

أم على مجهولٍ مقدّرٍ مثل: العاقبة، أو: العقوبة، أو: النهاية، أو غيرها؟

أم هو إشارةٌ مسبقةٌ للنار الحامية التي سيأتي ذكرها بعد ذلك؟

خامساً: جوامع الكَلِم

١- وما أدراكَ ما:

هذا التعبير الذي لم يعرفه الشعر الجاهليّ، كما تأكّدنا خلال حديثنا عن سورة (الهُمَزة)، أصبح جزءاً من لغتنا اليوميّة؛ بحيث لا نميّز ونحن نردّده أنّنا نستخدم في الحقيقة تعبيراً قرآنيّاً.

بل ربّما التزمنا بكامل السبيكة القرآنيّة فقلنا: الامتحانات، وما أدراك ما الامتحانات، أو: الحرب، وما أدراك ما الحرب..

٢- ٣- فأمّا مَن ثَقُلت / خَفّت موازينُه:

كلتا هاتين العبارتين القرآنيّتين تصلح لأن تُطلق على عددٍ من المواقف اليوميّة.

فنقول مثلاً لمن عمل واجتهد من التلامذة لنشجّعه على المزيد من الاجتهاد: فأمّا من ثقُلت موازينه فالنجاح حليفه.

ونقول للمقصّر في عمله أو دراسته منذرين: وأمّا من خفّت موازينه فلن يكون من نصيبه إلاّ الخسارة.

٤- في عِيشةٍ راضية:

وهذه العبارة قد تطلَق على أية نتيجةٍ طيّبةٍ أو مكافأةٍ مُجزيةٍ ينالها أحدهم في نهاية عمله، أو نَعِده بأن ينالها، أو نصف حياة من استتبّ أمره ونجح في حياته فنقول: إنه الآن في عيشةٍ راضية.

٥- وما أدراكَ ما هيَهْ:

وهذا التعبير يشبه في استعماله التعبير رقم (١) مع تخصيصه بمسألةٍ غير واضحة المعالم للسامع بعد.

٦- نارٌ حامية:

بإمكاننا إطلاق هذه العبارة على أيّ موقفٍ مبالَغٍ فيه: فأسعار البائع الفلانيّ نارٌ حامية، ولسان فلانٍ من الصَحفييّن نارٌ حامية، وعقوبة كلّ من يخرج على النظام نارٌ حامية، وغيرها..

obeikan.com